أبو العتاهية

للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى

تابع

انتهينا من بيان الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ما حدث من انقلاب فى حياة شاعرنا سنة ثمانين ومائة للهجرة، وعرفنا أن أهمها هو شعوره بالضعة لما كان من وضاعة آبائه وأجداده، وما استتبع ذلك من حقد على ذوى الجاه والنفوذ فى عصره، وسخط على الحياة والأحياء عامة. وثانيها نقمته على هارون وبغضه له. وثالث تلك الأسباب هو تدخل الفضل بن الربيع وزبيدة وتشجيعهما للشاعر على الثورة ضد الخليفة

واليوم تبدأ المرحلة الثانية فى دراستنا وهى القيام بجولة فى شعره لنرى مدى انطباق ما قدمناه من نظريات على تلك الأشعار، ولنبدأ بما كان من شعر الشاعر خاصا بهارون. ولعل القارئ الكريم يتوقع مما ذكرناه آنفا أن يرى لأبى العتاهية فى هارون نوعين مختلفين من الشعر: شعر ينبعث من نفس مائجة حقدا على الخليفة لما كان من تثاقله فى أمر عتبة ثم ما كان من حبسه للشاعر فى غير جريرة اللهم إلا استعماله لحقه الطبيعى من الامتناع من الغزل. وشعر من نوع آخر لا ينفس به الشاعر عن نفس مغيظة أو عواطف مكبوتة، ولكن يحاول فيه أن يفى للفضل وزبيدة بما أخذه على نفسه من تسخير ملكته الشعرية لخدمتهما

وقد كان النوع الأول يتمثل فى تأليب الناس على الخليفة أملا فى تقويض ملكه وزوال سلطانه، ويتمثل أيضا فى تلك الأشعار الكثيرة التى كان يرجو فيها للخليفة موتا عاجلا يريحه ويريح منه، فمن ذلك تلك الأبيات التى أرسلها الشاعر إلى خزيمة بن خازم أحد قواد الرشيد الأكفاء والتى يقول فيها:

ألا إن تقوى الله أفضل نسبة ... تسامى بها عند الفخار كريم
إذا ما اجتنبت الناس إلا على التقى ... خرجت من الدنيا وأنت سليم
أراك امرأ ترجو من الله عفوه ... وأنت على مالا يحب مقيم
تدل على التقوى وأنت مقصر ... أيا من يداوى الناس وهو سقيم
وأذللت نفسى اليوم كيما أعزها ... غدا حيث يبقى العز لى ويدوم

والأبيات كما هى الآن مجردة من تعليق الرواة لا توحى بأن وراءها معنى خاصا، وما هى إلا كغيرها من القصائد الكثيرة التى يمر بها القارئ فى ديوان أبى العتاهية ويأخذها على أنها نوع من الوعظ لم تقصد به شخص بذاته ولا يهدف إلى غرض بعينه حتى أن جامع الديوان قدم لها بقوله (وقال فى تقوى الله وحسن منافعها وحميد عاقبتها) والآن انظر المناسبة التى قيلت فيها حتى تعرف بالتحديد قصد الشاعر بها: وإليك ما يرويه الأغانى فى بيان تلك المناسبة: (حدث حبيب بن عبد الرحمن عن بعض أصحابه قال: كنت فى مجلس خزيمة فجرى حديث مايسفك من الدماء فقال: والله مالنا عند الله عذر ولا حجة إلا رجاء عفوه ومغفرته. ولولا عز السلطان وكراهة الذلة وأن أصير بعد الرياسة سوقة وتابعا بعد ما كنت متبوعا ما كان فى الأرض أزهد ولا أعبد منى. فإذا هو بالحاجب قد دخل عليه برقعة من أبى العتاهية مكتوب فيها الأبيات السالفة فغضب خزيمة وقال: والله ما المعروف عند هذا المعتوه الملحف من كنوز البر فيرغب فيه حر. فقيل له، وكيف ذاك؟ فقال: لأنه من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله)

يظهر أن خزيمة كان يجلس إلى نفر من الشيعة أو غيرهم من الطوائف التى كانت تنقم من هارون ميله لسفك الدماء، ويظهر أنهم لاموا خزيمة فى تعاونه مع هارون على ما يرتكبه الأخير من مظالم. والأبيات واضحة فى معناها وفيها يثبط الشاعر خزيمة عن مناصرة الرشيد ويذكره بآخرته ويبين له أن الفخر إنما هو فى التقوى والعز الحقيقى إنما هو عز الآخرة لا الدنيا

وإليك أبيات أخرى من قصيدة قالها الشاعر وهو فى سجن الخليفة وفيها يقول.

أما والله إن الظلم لؤم ... وما زال المسىء هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم فى الحساب إذا التقينا ... غدا عند الإله من الملوم
سينقطع التروح عن أناس ... من الدنيا وتنقطع الهموم
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نؤوم

تموت غدا وأنت قرير عين من الغفلات فى لجج تموم

ومع أن القصيدة تسعة عشر بيتاً فنحن نعتقد أن الشاعر إنما أرسل منها إلى الرشيد الأبيات الأخيرة فقط واحتفظ بالباقى لنفسه، لا كما يذكر الرواة من أنه أرسل القصيدة بتمامها إلى هارون، ولو أنه فعل لاستوجب سفك دمه. والأبيات الأخيرة التى أرسلها تروى هكذا:

ألا يا أيها الملك المرجى عليه نواهض الدنيا تحوم
أقلنى زلة لم أجر منها إلى لوم وما مثلى يلوم
وخلصنى تخلص يوم بعث إذا للناس برزت الجحيم

وشبيه بذلك تلك الأبيات التى يقول فيها الشاعر:

أراك لست بوقاف ولا حذر كالخاطب الخابط الأعواد فى الغلس
أنى لك الصحو من سكر وأنت متى تصح من سكرة يغشاك فى نكس
ما بال دينك ترضى أن تدنسه الدنيا وثوبك مغسول من الدنس

ويروى أبو الفرج أن أبا العتاهية أنشد الرشيد بعض أبيات هذه القصيدة حين قال له الأخير: عظنى فقال الشاعر. أخافك فقال له أنت آمن فأنشد:

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس إذا تسترت بالأبواب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

ووجه الشبه بين القصيدتين أن كلا منهما تحتوى على أبيات فيها اعتدال، ولذا أمكن إنشادها للرشيد وأخرى لم ينشدها الشاعر لما فيها من مظاهر الحقد والضغينة ولكنها فى الوقت نفسه تبين لنا رأى الشاعر فى الخليفة وعواطفه نحوه، وإننا لنرجح أن الشاعر قد قال فى هارون مقطوعات شعرية غير التى أسلفنا عبر فيها عن بغضه له وحقده عليه، ولكن الرواة لم يهتدوا إلى غرض الشاعر منها حيث أنها لم تقترن بما يميزها من ظروف وملابسات على نحو ما حدث فى الأمثلة السابقة، فنحن مثلا لا نشك فى أن أبا العتاهية كان يقصد الرشيد حين قال:

حتى متى تصبو ورأسك أشمط أحسبت أن الموت فى اسمك يغلط
أم لست تحسبه عليك مسلطا ويلى وربك إنه لمسلط
ولقد رأيت الموت يضرس تارة جثث الملوك وتارة يتخبط

إلى آخر ما قاله فى تلك المقطوعة، وإنما ذهبنا هذا المذهب لأن هارون الرشيد كان إذ ذاك الشخص الوحيد الذى له من السلطان والسطوة ما يمكن معه أن يشك فى تسلط الموت عليه إن حق لشخص ما أن يشك فى تلك القضية، كما أن ذكر الملوك فى البيت الثالث يرجح أنه كان يعنى بما يقول واحداً منهم، على أن الشاعر يبدى لنا رأيه فى الرشيد بصراحة وذلك فى أبيات يبدؤها بقوله:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا فلا يكن لك فى عيش لهم ظل

ومما يحمل على الاعتقاد بأن أبا العتاهية إنما كان يعنى بما يقول هارون ما أخذه الشاعر على الملوك من الملل حين يتحدث إليهم متحدث، واتهامهم الناصح بالغش وذلك يمثل حال الشاعر مع الرشيد بالذات، لأنه الخليفة الوحيد الذى كانت علاقته بالشاعر تسمح بمجالسة أحدهما للآخر، ومن ثم تعطى فرصة لحديث معاد محلول أو نصيحة غير مقبولة

والآن وقد وقف القارئ الكريم على طبيعة ما كان بين أبى العتاهية والرشيد من علاقة يسرنا أن نشركه معنا فى تدبر القصة التالية: يروى أبو الفرج أن رسول ملك الروم قدم إلى الرشيد فسأل من أبى العتاهية وأنشد شيئاً من شعره وكان يحسن العربية، فمضى إلى ملك الروم وذكره له فكتب ملك الروم إليه ورد رسوله يسأل الرشيد أن يوجه بأبى العتاهية ويأخذ فيه وهائن من أراد، وألح فى ذلك، فكلم الرشيد أبا العتاهية فى أمر سفره فأباه، واتصل بالرشيد أن ملك الروم أمر أن يكتب ببغداد من شعر أبى العتاهية على أبواب مجالسه وباب مدينته وهما:

ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء فى الفلك
إلا لنقل السلطان من ملك قد انقضى ملكه إلى ملك

ألا نوافقنا على أن فى هذه القصة هيئا من الغرابة؟ فإذا صح أن سفير الروم كان يعرف العربية وكان ذلك يتذوق شعر

أبي العتاهية فما بال ملك الروم يتطلع إلى سماع شعر أبي العتاهية هو الآخر ؟ فهل كان يعرف العربية أيضاً ؟

ومهما يكن من شيء فنحن نشك في أنه كان متحمساً لشعر أبي العتاهية تحمساً يدعوه إلى أن يلح في طلبه ذلك الإلحاح ، وأكبر ظني أنه كان يريد استغلال الشاعر استغلالاً سياسياً على نحو ما تفعل الدول اليوم من اجتذاب أحد أبناء الشعوب المشتبكة في حرب معها إليها ، وتسخيره للدعاية ضد الحكومة القائمة في وطنه . فما من شك في أن جواسيس كثيرة كانت تعمل إذ ذاك لصالح الروم وكانت تتخذ من بغداد مركزاً لنشاطها، وما من شك في أن الروم كانوا على علم تام بأساليب تلك الدعاية وآثارها ، ألا ترى أنهم استغلوا رجلاً آخر قبل أبي العتاهية وهو يونس بن أبي فروة الذي كتب لهم كتاباً فيما أخذه على الإسلام من معايب بزعمه . فما الذي يمنعهم حين علموا ما علموا عن بغض أبي العتاهية للرشيد من استقدامه إليهم وإعطائه فرصة كاملة لتسجيل ما كان يأخذه على الرشيد من ميل إلى اللهو وعكوف على اللذات واستهتار بالدين . وليس هناك أدنى شك فيما كان يمكن أن تحدثه تلك الأشعار من أثر سيئ في روح جيش الرشيد المعنوية، فقد كان كثير من أولئك الجنود يذهبون إلى حرب الروم والحماسة الدينية تملأ صدورهم لما يعتقدونه من عدالة القضية التي يدافعون عنها، ولكن حين يتضح لهم أن خليفة المسلمين وحامي حمى الإسلام وقائد تلك الحملات ماهو إلا رجل خليع مستهتر وليس له من مظاهر الدين إلا احتراف الحروب ضد الروم فستخبو حماستهم وتضعف عزائمهم وتتفرق كلمتهم . ونحن لا نستبعد أن يكون ملك الروم إعجاباً بالبيتين اللذين ذكرا فيما سبق لما يبشران به من موت الرشيد ، ذلك الخصم العنيد الذي فشلت جيوش الروم في صد غاراته أو وقف حملاته . هذا ويذهب البروفيسور[1] جيوم الى أن ما أورده الأغاني خاصاً عما كان بين ملك الروم وأبي العتاهية من مكاتبات وما كان من أعجاب الأول بشعر الأخير ليس إلا محض اختلاق أراد به مختلقه أن يبرهن على أنه كان من بين ملوك المسيحيين من هو أشد حرصاً على سماع الموعظة الحسنة من ملوك الإسلام

وإنا إذ نترك الكلمة الأخيرة في تلك المسألة إلى القارئ الكريم ليسرنا أن نعود معه إلى تلك القصائد والمقطوعات التي كان الشاعر يهدف فيها إلى تنفير الرشيد من اللهو والعبث وقاه عما قطعه على نفسه للفضل وزبيدة من عهود . وأول ما يلاحظه الباحث على تلك المقطوعات هو كثرتها وتنوعها ، وقد أدى إلى كثرتها وتنوعها على تلك الصورة ما كان من ميل الشاعر الطبيعي إلى ذلك النوع من الشعر الوعظي، فقد كان ذلك اللون من الشعر يستهوي العامة فيجمعهم حول الشاعر ويزيد في حبهم واحترامهم له، وفي ذلك تعويض لما يحسه من ضعة نتيجة لضعة آبائه وأجداده

وقد كانت طريقة الشاعر في وعظ الرشيد تختلف من وقت لآخر تبعاً للمناسبات، فهو حيناً ينهاه عن اللهو نهياً مباشراً وحيناً يذكره بما أصابه من شيب وأحياناً يبصره بما لا بد أنه ملاقيه من موت . وهكذا نعتقد أن الشاعر كان يخاطب الرشيد بكثير من المقطوعات التي تنهى عن اللهو واللعب كتلك التي تبدأ :

أنلهو وأيامنا تذهب ونلعب والموت لا يلعب

* * *

أسلك بي مناهج السادات وتخلقن بأشرف العادات

على أنه إذا كان هيناً ليناً في المقطوعتين السابقتين فقد يصل أحياناً إلى حد الإزعاج كما في قوله :

أيا من بين باطية ودن وعود في يدي قاو مغن
إذا لم تنه نفسك عن هواها وتحسن صونها فإليك عني
فإن اللهو واللذات جنون ولست من الجنون وليس مني
وأي قبيح اقبح من لبيب يرى متطرباً في مثل سني
إذا مالم يتب كهل لشيب فليس بتائب ما عاش ظني

ولعلنا لا نكون قد ذهبنا بعيداً إذا ادعينا أن بعض تلك

(١) الأستاذ بجامعة لندن وأستاذ كاتب هذا المقال

المقطوعات كان ينشد بصورة جمعية ، ومن يدرى لعل زبيدة كان لديها من الجوارى من يقوم بإنشاد تلك الأشعار فى جانب من جوانب قصر الخلافة لترد بذلك على ما كان ينشد فى الجانب الآخر من أناشيد الحب والغزل ، ألا توحى موسيقى المقطوعتين التاليتين أنهما إنما أنشئتا لذلك الغرض

أنظر لنفسك يا شقى ... حتى متى لا تتقى
أو ما ترى الأيام ... تختلس النفوس وتنتقى

* * *

خير الرجال رفيقها ... ونصيحها وشفيقها
والخير موعده الجنا ... ن وظلها ورحيقها
والشر موعده لظى ... وزفيرها وشهيقها

وليس ذلك بغريب على زبيدة ، ألا ترى أنها عمدت إلى مائة من جواريها بقراءة القرآن فى قصرها ليلا ونهارا ، وما نظن أن ذلك العمل كان خالصا لوجه الله تعالى وإنما كان للغرض الذى أشرنا إليه فى السطور السابقة

وقد اعتمد الشاعر فى تنفيره من الملاهى واللذات على مخالفتها للدين ومجافاتها للآداب العامة، وكان ينظر إليها فى بعض الأوقات نظرته إلى ضرب من ضروب الجنون الذى لا يليق بالعقلاء من أمثاله ! فكيف بخليفة رسول الله وابن عمه وولى أمر المسلمين من بعده . وأخيرا ينهى عنها لما تعقبه من حسرات أو تصيب به الجسم من فساد وتحطيم

أما شيب الرشيد المبكر فقد أعطى الشاعر فرصة كاملة لوعظه والإلحاح عليه فى ذلك إلحاحا مملا . فاللهو فى رأيه من شأن الشباب ؛ أما الشيوخ فالوقار والتدين أولى بهم ، ألم يجعل القرآن سن الأربعين الحد الفاصل بين حياة اللهو وحياة الجد إذ يقول « حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه » ولم لا والشيب نذير الموت بل هو الموت بعينه :

الشيب إحدى الميتتين تقدمت ... إحداهما وتأخرت إحداهما

ويزعم الشاعر أن المرء لا يشعر باللذات فى شيخوخته كما كان يشعر بها فى شبابه، ففيم إذن يرتكب الآثام وينتهك الآداب،

وإذا كبرت فهل لنفسك لذة ... ما للكبير بلذة متمتع

ونحن لا نشك فيما كان يصيب هارون من ضيق وارتباك عند سماع تلك الأشعار ؛ ألا ترى ما فعله بأحد المغنين حين غناه :

وأرى الغوانى لا يواصلن امرأ ... فقد الشباب وقد يصلن الأمردا

وقد أمر الخليفة به فسحب على وجهه وأخرج من المجلس وقال له : يا ابن الفاعلة أتعرض بى فى غنائك ؟

وإنا إذ نختتم هذا المقال لنرجو أن نعود إلى استئناف الكتابة فى هذا البحث بعد أسابيع قلائل إن شاء الله تعالى

محمد عبد العزيز الكفراوى

مختارات من الأدب الفرنسى
شعر ونثر
للأستاذ أحمد حسن الزيات بك
مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد الفريدة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها
وثمنه ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد